الفصل الأول

النهضة فى إيطاليا

إن ما يسمى عصر النهضة فى مراحل التاريخ الأوروبى ، عصر شهد بعثا جديداً للآداب والفنون والعلوم ، وامتد خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ؛ ويجوز لنا القول بأن دانتى كان يحتضر طوال هذين القرنين ، فقد زال الأدب الذى تمثله « الكوميديا الإلهية » ليحل محله أدب آخر يعبر عن نزعات جديدة ، إذ كانت حرية العقيدة الدينية وحرية التفكير العلمى ؛ وما نتج عنهما من العوامل ، وليدة قرنين من الزمان .

فقد لبثت أوروبا فى الشطر الأعظم من القرون الوسطى فى ظلام دامس من الجهل حيث طويت ثمرات الفكر القديم فى أديرة الرهبان ؛ وما إنْ وَجدت سبيلها إلى النشر حتى أشرقت شمس النهضة فى طول البلاد وعرضها تحيى بدفئها الجميل عقولا كانت قد ركنت إلى جمود الموت زمانا طويلا ؛ ولسنا فى هذا المقام بصدد بسط مستفيض لبواعث النهضة وأسبابها ، وحَسْبنا أن نوجز فى ذلك القولَ فنذكر أن سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك عام ١٤٥٣ م قد تَبِعَتْه هجرة العلماء اليونان إلى إيطاليا يحملون معهم علما بالأدب اليونانى كانت أوروبا الغربية قد أضاعته وجهلت من أمره كل شىء ؛ وشاء الله أن يتعهد هذه الحركة المباركة بالتوفيق ، فهيأ للإيطاليين أن يتعلموا قبل ذلك بقرن صناعة الورق ، وأن تُخترع المطبعة فى ألمانيا قبل سقوط القسطنطينية بعشر سنوات ، ثم حدث إلى جانب ذلك كله أن استكشف كولمبس القارة الأمريكية عام ١٤٩٢ ، فانقلبت فكرة الناس عن دنياهم التى يسكنونها رأساً على عقب ؛ ويستحيل أن يقع كل هذا ولا يُنْتج انقلابا فى مذاهب الاجتماع والسياسة والدين .

ولما كانت إيطاليا أقرب الدول الأوروبية إلى اليونان وألصقها بتراث الرومان القدماء ، فقد أصبحت مهدا للنهوض ؛ ففى إيطاليا رفع الإنسان — لأول مرة بعد محنة القرون الوسطى — بصره المكدود من طول النظر إلى القبور ، والتفكير فى يوم البعث والنشور ، ليستمتع بجمال

الحياة فوق هذه الأرض الفاتنة ؛ وكانت المدن الإيطالية بصفة عامة ، وفلورنسه بصفة خاصة ، مهبط النور ؛ وقد استمدت ضياءها من أثينا كما يستمد القمر ضوءه من الشمس ؛ وأول ما همّ العلماء الإيطاليون بصنعه أن أنقذوا الوثائق المخطوطة القديمة من فناء كاد يحيق بها فى مدافنها ؛ وأخذ المترجمون ينقلون إلى اللغات الحديثة تراث اليونان والرومان ؛ نعم كتبت مؤلفات عظيمة القدر فى عصر النهضة ، لكن كان النشر القديم فى عالم الفكر القسط الأوفى .

لم يلبث الفكر بعد موت دانتى أن نحا نحواً جديداً فى فلورنسه أولا ثم فى إيطاليا كلها ثم فى أوروبا بأسرها ؛ فلئن ظل الأدباء يلتمسون فى دانتى نموذجا يحتذى فى جَوْدة الأسلوب ، فإن رجال الفكر وأصحاب العمل لم يجدوا فيما كتبه دانتى عونا لهم فيما تتطلبه ظروف الحياة الجديدة ؛ فإذا قيل إن دانتى لم يؤسس مدرسة ، وإنه فى الحلبة فريد لا يحيط به التلاميذ والأتباع ، فما ذاك إلا لأن العالم سارت قافلته فى اتجاه جديد وخلّف وراءه دانتى ؛ وربما كان ذلك لأنه مثال من الأمل تعذر على الحياة العملية أن تحققه فأهملته .

ارجع ببصرك إلى فلورنسه بعد موت دانتى بعشرين سنة (١٣٤٨/٤٩) حيث الوباء يفتك بأوروبا فتكا ذريعاً ، « والموت الأسود » يحصد الناس ألوفا ألوفا ، فماذا ترى ؟ زالت من الأذهان فكرة التمتع بالحياة ، وأحل رجال الدين مكانها متعة أخرى هى البعد عن بهجة الدنيا وزخرفها إلى الصوامع القصية والأديرة البعيدة ؛ فماذا يكون « الموت الأسود » الفتاك إن لم يكن نقمة من الله أراد بها القصاص من البشر على ما اقترفته أيديهم من خطيئة وشر ؟ فليتفض الناس عن أنفسهم دنس الحياة ليُخْلصوا لله العبادةَ والتفكير ؛ فأثمرت تلك العزلة أثراً أدبياً جميلا هو كتاب « محاكاة المسيح » لمؤلفه « توماس أَكِمْبِسْ »[1] ، وكانت النزعة السائدة أن الآخرة قبل الدنيا ، والموت فوق الحياة ، وإرادة الله نافذة وليس للإنسان بجانبها إرادة ، وأن العقل الإنسانى ضعيف عاجز فمن الحمق أن يطالب بحريته .

لكن هل يمكن أن يخيم هذا الخمود على العقول من غير أن تحاول الإفلات ؟ إن

---

(١) Thomas à Kempis ولد سنة ١٣٨٠ .

ذلك لا يستوى وطبيعة البشر ، فلابد أن تشرق للنهضة طلائع ، تمثلت أولا فى « بِتْرَارْك » و « بوكاتشو » حتى إذا ما ازدهرت النهضة فى إيطاليا شهدت من حماة الشعر والفن أسرة مديتشى وأسرة بورجيا وأسرة أورسينى ، وشهدت من رجال الفن « ميخائيل انجلو » و « رفائيل » و « دافنشى » ومن الأدباء « أريوستو » و « مكياڤلى » ؛ وحسب إيطاليا فى عصر نهضتها هذه الأنجم السواطع دليلا على ما بلغته من عظمة ومجد .

بترارك Petrarch (١٣٠٤ — ١٣٧٤) :

لكن هذه النهضة الأدبية لم تكن لتزدهر لولا أن وجدت تربة صالحة تورق فيها وتثمر ؛ وإنما تمهد هذه التربة نفر هم من حركة النهوض بمثابة الطلائع والبشائر تهتف بقادم جديد ، ومن هؤلاء بترارك الذى كان يصغر دانتى بجيل واحد ، ويكبر بوكاتشو بتسع سنوات ؛ والذى غلبت شهرته فى زمانه — وإلى قرنين مقبلين — اسم دانتى ، فضؤل دانتى عند الناس بالقياس إلى بترارك الذى تُوِّج أميراً للشعراء فى روما ، وخلع عليه معاصروه كل علائم التمجيد .

لقد أنفق بترارك شطراً عظيما من حياته فى بلد قريب من « أڤنيون Avignon » ولم يكد يغادر مكتبته قط إلا إلى رحلة يرجو بها أن يجد مخطوطات قديمة أخرى ؛ وكان من الكنوز التى هبط عليها « شيشرون » الذى وجد فيه بترارك متاعا لا حد له ، إذ كانت غايته المنشودة أن يستمد لإيطاليا الجديدة حياة من ينابيعها القديمة ، فكان مما عبر فيه بترارك عن حبه للاتينية القديمة ملحمته «أفريقيا» التى أدارها حول حروب « Scipio سيپيو »(١) و « هانيبال Hannibal » ؛ والعجيب أن بترارك قد آثر هذه القصيدة التى أعجمت على أهل عصره كما تعجم علينا الآن فلا نحاول قراءتها ، آثرها على قصائده الغنائية ، مع أن هذه القصائد قد أصبحت فى أوزانها نموذجا يحتذيه الشعراء من بعده ، فبترارك خالد فى عالم الأدب بأغانيه ، وأشهرها وارد فى ديوانه « أشعار إلى سيدتى لورا » ولعلها أنفس ما تقدم به رجل لامرأة ؛ فالقصائد التى عبر فيها بترارك عن حبه لها ، وعن أمله ويأسه ، والتى

---

(١) لما زحف هانيبال بجيشه على إيطاليا كان سيپيو قنصلا عاما (٢١٨ ق . م) ، وحاول أن يقف الجيش المغير ، لكنه هزم وجرح جرحا بليغاً .

صَبَّ فيها حزنه العميق لموتها تعد من أروع ما أنتجت قرائح الشعراء .

كان پترارك يكتب اللاتينية فى يسر وطلاقة ؛ ويدعو الناس إلى دراسة الأدب الإغريقى فى أصوله ، فكان بذلك أول مذيع للدعوة الهلينية فى أوروبا الحديثة ، مع أنه هو نفسه لم يتعلم قراءة اليونانية ، ومات وهو يقرأ ترجمة « الأوذيسية » ويكتب مذكراته على هوامشها فى مكتبته على سفح جبل مشوشب ، فكان حبه للإقامة فى حضن الطبيعة حلقة أخرى تربطه بالاتجاه الطبيعى الجديد ، ذلك الاتجاه الذى أفصح عن نفسه فى رحلات الناس الاستكشافية فى الزمان وفى المكان معاً ، أما رحلاتهم فى الزمان فقد تمثلت فى الرجوع إلى ثقافة الماضى ونشرها ، وأما رحلاتهم فى المكان فقد تمثلت فى كشف أمريكا وغيرها من أصقاع الأرض .

ومن مقطوعاته الغنائية التى أنشدها فى حبيبته لورا :

(لا سكينة لى فى الليل)

نشر الصمت على الأرض والسماء جناحا
ورقد الوحش والطير لا يُبْدى فى النعاس حراكا
وسرى الليل فى محفة مرصعة يشق فى السماء طريقا
وسكن سطح البحر فوق القاع لا يعلو صَدْرَه موج
وأنا — يا ربة الشعر — يقظان أبكى وأحترق
لا تزول عن خاطرى علة شقائى ، وما أحلاها
إنى خلقت لحياة النضال يملؤها الحزن والغضب
تملك علىّ الحبيبةُ لُبّى ، لكنى أستمد من ذلك راحتى
فمن مَعين واحد نابض متألق
ينبع غذائى من حلو ومر
إن يداً واحدة فيها شقوتى وراحتى
وهكذا أجاهد فى الحب جهاداً غير محدود
فأحس كل يوم ألف موت وألف حياة

ألا ما أبعد الطريق إلى سكينتى وسلامى

هذا هو بترارك الذى لا يزال حياً بيننا بأغانيه ، بل إن البحر الذى اختاره لأناشيده لا يزال قائماً فى الأدب الإنجليزى باسم « البحر البترارکى »[1] ابقاء على ذكره واعترافا بفضله ، ولم يكن بترارك شاعراً وكفى ، بل كان فوق ذلك بشيراً بالثقافة الإنسانية الصحيحة ، يبذر المدنية بذورها لتنمو وتورق ، والمدنية عنده هى مدنية اللاتين والإغريق .

بوكاتشو Boccaccio :

ولكن أين بترارك فى هذه النزعة الإنسانية من بوكاتشو الذى كان أول من نبغ بين الكتّاب الإيطاليين فى النثر القصصى ، بل إن كثيراً من النقاد ليذهبون إلى أنه لا يزال حتى يومنا هذا رب القصة القصيرة وسيدها .

ولد جيوڤانى بوكاتشو فى باريس عام ١٣١٣ من زواج غير شرعى لأب كان يشغل منصباً على كثير من الوجاهة واليسار ، فقد كان فى مقدمة رجال التجارة فى مدينة فلورنسه فى وقت كانت تسود المدينةَ فيه جماعةٌ من الطبقة الوسطى أثْرَت فأزاحت الطبقة العليا عن عرشها ؛ وقضت أعمال التجارة أن يذهب الوالد إلى باريس فى رحلة قصيرة ، فاتصلت الأسباب بينه وبين امرأة فرنسية ، وكان « جيوڤانى » ثمرة ذلك الاتصال ، ثم عاد الوالد مع وليده إلى بلده فلورنسه .

ولما شبَّ الغلام أراد أبوه أن يعلمه التجارة وشؤون المال ، فأرسله إلى نابلى ليمارس تلك الأعمال فى أحد أفرع تجارته الممتدة الأطراف ، غير أن بوكاتشو الصغير لم يتعلم شيئاً عن البيع والشراء ، إذ لم تصادف التجارة من نفسه إلا نفوراً ، لكنه وجد الحياة هنالك زاخرة فعبَّ منها عباً ، وقد قال بوكاتشو فى نابلى إذ ذاك : « إنها مدينة بهيجة غنيّة فاخرة

---

(١) البحر البترارکى فى المقطوعة الشعرية هو أن تتألف المقطوعة من جزءين : جزء قوامه ثمانية أشطر ، ويليه جزء قوامه ستة أشطر ؛ أما الجزء الأول فتكون قوافيه كما يلى : ا ب ب ا ، ا ب ب ا ، وأما الجزء الثانى فتجرى قوافيه غالباً كما يلى : ح د هـ ، ح د هـ ؛ وإذن ففى المقطوعة خمس قوافٍ فقط ، كما أنه يلاحظ أن الجزءين مختلفان كل الاختلاف فى القوافى لا يشتركان فى أى منها ؛ وحركة هذا البحر — كما يقال — هى كحركة المد والجزر ، فهد فى الجزء الأول ينسحب كالجزر فى رفق فى الجزء الثانى ؛ والغالب أن يعالج الشاعر فكرته الرئيسية فى الجزء الأول ، ثم يشرحها بالمقارنة والتطبيق فى الجزء الثانى . والمقطوعة المكونة على هذا النحو من ١٤ بيتا هى المعروفة فى الآداب الأوربية باسم sonnet « سونتا » .

تفوق سائر المدن الإيطالية جميعاً ، يملؤها اللهو واللعب وأسباب المرح ... وكانت ڤينوس معبودة الناس ، فكثير من النساء قدمن المدينة وهن فى طهر لوكريس [١] وغادرنها فى خلاعة « كليوباطرة » ، فقد بلغت الأخلاق فيها غايتها من الانحلال ، وانغمس الناس فى المجون بحيث جاز أن ينازع الملكُ « روبرت الحكيم » رجلا من أهالى نابلى فى أبوة طفلة ولدتها زوجة ذلك الرجل ، فزعمها الملك روبرت لنفسه بحجة أنه اتصل بأمها فى إحدى ساعات اللهو منذ تسعة أشهر ، فأجابه الرجل إنه على فرض صدقه فما زال الأرجح أن تكون الطفلة ابنته لأنه اتصل بزوجته فى الفترة التى أشار إليها الملك ، فضلا عن شبابه وفتوته .

وشاء القدر أن تكون هذه الطفلة أشد المثيرات الوجدانية فى حياة بوكاتشو ، فقد شهدها فى الكنيسة لأول مرة ، وكانت عندئذ فى عامها السابع عشر تصغره بعام واحد ، وكانت قد تزوجت قبل ذلك بعامين ، فأحبها للنظرة الأولى ، وأخذ يحدق فيها حتى اضطرت الفتاة أن تسدل على وجهها قناعها ، على أنه لم تمض أيام حتى توثقت بينهما الصلات ، وهى التى أشار إليها بوكاتشو فى حكاياته باسم « فيامتّا Fiametta » ، وما مضت على حبهما عشر سنوات حتى قضى عليها « الوباء الأسود » ، كما قضى على « لورا » حبيبة پترارك ؛ ثم لم يلبث أن ألمت به ملمة أخرى ، وهى أن أباه أضاع كل ماله فهوت الأسرة كلها فى مسغبة ردّتْ عنها الأصدقاء ، فلما أثقل الهمُّ قلب بوكاتشو حج إلى قبر ڤيرچيل ، وهنالك قطع على نفسه عهداً أن يهب حياته للأدب .

وأول ثمراته فى الأدب قصيدة « فيلوستراتو Filostrato [٢] » التى تتكون كل مقطوعة فيها من ثمانية أشطر ، وقد نسج على منوالها « تشوسر » قصته « ترويلسْ وكرِسيدا Troilus and Criseyda » ؛ وكذلك أثمر حبه للأدب أثراً أدبياً آخر هو قطعة نثرية عنوانها « فيلوكولو Filocolo » كتبها ليدخل السرور على قلب حبيبته ، ثم قصة « فيامتّا » التى قيل عنها إنها أول قصة تحليلية عرفتها الآداب الأوربية ، وهى تعالج عواطف الزوجة

---

(١) سيدة رومانية امتازت بجمالها وعفتها ، وقد استثارها شاب فحملت نبأه إلى أبيها وزوجها ، ولما حملتهما على الأخذ بالثأر طعنت نفسها وماتت .

(٢) معناها « جندى الحب » .

التى هجرها الحبيب ؛ وبعدئذ أنشد قصيدة « ننفيل فيسولو Ninfale Fiesolo » التى قال عنها إنها خير ما أنشد من شعر .

ولم يمض طويل زمن بعد موت حبيبته « فيامتّا » (واسمها الحقيقى ماريا) حتى عاد بوكاتشو إلى فلورنسه وأخذ فى إنشاء آيته الكبرى وهى كتاب « ديكامرون » أو الأيام العشرة ، وموضوع الكتاب عشرة أشخاص — سبع نساء وثلاثة رجال — قرروا أن يلوذوا بالفرار من المدينة الموبوءة إلى الريف الطلق ، وأخذوا على أنفسهم أن يُسَرّوا عن أفئدتهم المحزونة بقصص يروونها ، فيروى كل منهم حكاية كل يوم ، وأن يظلوا على هذا النحو عشرة أيام فيكون من ذلك مائة قصة ، وسترى أن تشوسر الشاعر الإنجليزى سيستوحى الديكامرون فى كتابه « حكايات كانتربرى » .

قرر هؤلاء العشرة ألا يذعنوا للموت فى فلورنسه ، وأن يفروا إلى حيث الحياة خارج أسوارها ، فجمال السماء لم يغير منه الموت الأسود الذى ألمّ بالأرض ؛ وقصد الكاتب بذلك أن يرمز إلى الإفلات من قيود العصور الوسطى إلى حيث الحرية والطلاقة ، فكأنما خروج تلك الفئة من مدينة فلورنسه هو خروج من التقاليد وانقشاع لغيوم اللاهوت وسحائب التفكير المقيم .

تقول « بامبينيا Pampinea » — أحد الأشخاص العشرة — فى مستهل الديكامرون « لابد أن يقى الإنسان حياته وأن يصونها ويحميها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فهذا ما يحتمه العقل الفطرى فى كل إنسان » هذا حق طبيعى للإنسان وسط « هذا الوباء الفتاك الذى قد يكون نتيجة لما يصنعه رجال الدين أو عقابا عادلا من الله على ما اقترفت أيدينا » ؛ ذلك الوباء الذى أصاب « مدينة فلورنسه البهيجة ، أجمل المدن الإيطالية على الإطلاق ... وقد تغلغل هذا الوباء فى عقول الرجال والنساء فانصرف من هوله الأخ عن أخيه . . . بل هجرت الزوجة زوجها ، بل هجر الآباء والأمهات بنيهم لغير راع أو زائر فخلفوهم للفناء كأنما هم عنهم غرباء » ؛ ومع ذلك الهلع والجزع استشارت « بامبينيا » أصحابها كيف السبيل إلى نجاة الكرامة الإنسانية حتى فى مدينة الموتى ، وقالت « لابد لنا من بهجة بالحياة ما دمنا لا نجاوز حدود العقل فى كل صغير من الأمر ؛ فنى الريف الجميل سنصغى إلى تغريد الطير ونلقى بأبصارنا إلى التلال والسهول الخضراء وإلى حقول القمح تميل كما يميل موج البحر ،

و إلى ألوان الشجر وما أكثرها ؛ هنالك سننظر إلى السماء نظرة أوسع أفقاً ، فيما تكن قاسية علينا فلسنا نجد ما لها من جمال فاتن دائم » .

تلك نظرة جديدة بغير شك ، فبعد أن كان الناس فى العصور الوسطى يركزون اهتمامهم فى أنفسهم ، ويقيسون الأشياء بمقياس مصالحهم ، فينظرون إلى السماء كأنما هى وحش يكشر لهم عن أنيابه لينتقم ، أصبح الناس فى مستهل النهضة ينظرون إلى الطبيعة نظرة موضوعية ، يرون مناظرها و يسمعون أنغامها ليعيشوا فيها وفق ما يحتمه العقل السليم ؛ وحين أطلق بوكاتشو لسان پامپينيا قائلا : « نريد أن نحيا حياة مرحة » ، إنما أراد بذلك أن يخلق جمهوراً قارئاً يستمتع بقراءة حكاياته .

والحق أن قصص الديكامرون ممتعة تشتمل على كثير من مواقف الجد والهزل : فيها سخرية بالقساوسة والرهبان الذين غصت بهم العصور الوسطى ، وفيها أصول لكثير جداً من الملاهى التى جرت بها أقلام الكتاب المسرحيين ، وفيها بهجة ومرح ومجون ؛ ولعل خير ما يوصف به هذا الكتاب هذه العبارة الموجزة الجامعة التى اختارها له مترجمه إلى الإنجليزية فى القرن السابع عشر ، وهى : « نموذج للمرح والبديهة الحاضرة والفصاحة وحسن الحديث » فموضوعات هذه القصص من التنوع والتباين بحيث لا تجد لها فى ذلك ضريباً ، فمنها ما يخوض فى مهاترات الحمق ، ومنها ما يستدر أرق العواطف وأرقاها ؛ و بعضها تافه الموضوع ، و بعضها يخرج على حدود العرف الاجتماعى بحيث لا يصلح أن ينشر اليوم فى مجلة تطالعها عامة الناس ، ولكنك لن تجد فى هذه القصص المائة واحدة قد زلّت فيما يزل فيه الكثير من الآثار الأدبية ، وهو جمود العاطفة و برودها .

إن من الآثار الأدبية ما يصور للإنسان مثله الأعلى ليجتذبه نحوه ، ومنها ما يصور له عيوبه ليضحكه من نفسه ، فالكوميديا الإلهية لدانتى من الضرب الأول ، والديكامرون لبوكاتشو من الضرب الثانى ؛ إن الإنسان حيوان طموح تراه دائماً يزخرف حقائق طبيعته بأوهام ليتوهم أنه كامل أو مقترب من الكمال ؛ ولذا تراه أحيانا يبذل مجهوداً محموداً محاولا أن يحيا وفق أوهامه لعله يدنو فعلا مما رسمه لنفسه من مثل أعلى ، لكنه كثيراً ما يفشل ضعفاً وعجزاً ، فيجد العزاء والسلوى حين يقرأ كتابا كالديكامرون يذكّره بأن فى الناس آلافا يماثلونه ضعفاً ونقصاً .

لقد زعمنا فيما سلف أن الكوميديا الإلهية تمثل ذروة ما بلغه الأدب فى العصور الوسطى ، وأن الديكامرون يمثل البادرة التى بَشَّرَتْ بالنهوض والإحياء ، فمن أين أتى هذا الخلاف ؟ هو فى أن الكوميديا الإلهية تهيئ القارئ لحياة الآخرة بينما أريد بالديكامرون أن يُعِد الإنسان نفسه للحياة على هذه الأرض ، وهاهنا يقع الفارق بين روح العصور الوسطى وروح العصر الحديث .

إن الديكامرون من أكثر الآثار الأدبية ميلا إلى تصوير الواقع من غير تأثر بالميل والهوى ، فأدبه موضوعى متطرف ، إذ لا تلمس شخصية المؤلف فى أى موضع من الكتاب ولا هو يلون القصة بميوله الخلقية ؛ فالحكايات تروى من وجهة نظر إنسان متفرج يقص علينا أن شيئاً معيناً وقع على نحو معين ، دون أن يضيف الكاتب عاطفته من إشفاق أو تأنيب ؛ لذلك ترى بعض ما يثير الأسى والحزن فى شخصيات القصة يثير فينا الضحك ، وهذا تصوير دقيق لما يحدث فى الحياة الواقعة ، فقد يحب فتى فتاة وتقوم فى وجهه عقبات تستدعى منه سلوكا معيناً فيه غرابة وشذوذ ، فمثل هذا السلوك فى عين صاحبه فرض محتوم عليه لا قِبَلَ له بردِّه ، ولكنه حين يُروى لنا قد نراه مهزلة مضحكة ، وإذن فالقصة الواحدة قد تضحك وقد تبكى حسب أساليب روايتها ، وقد حكى بوكاتشو حكاياته على نحو يثير فى قارئه الضحك من ضعف الإنسان ، لأنه حكى الواقع ، والواقع أكبر المهازل .

كان بوكاتشو مبتكراً لبعض حكاياته ، لكنه لم يصنع فى بعضها الآخر غير الصياغة والتعبير ، إذ كان منها ما هو شائع يحكيه الناس بعضهم لبعض ، ومنها ما ترجمه عن الخرافات الفرنسية القديمة ؛ ومهما يكن من أمر مصادر الكتاب ، فقد أصبح الديكامرون جزءاً من الأدب العالمى ، ولا يزال الشعراء الإنجليز من أقدمهم إلى أحدثهم يَرِدُون حوضه الغزير ويستقون منه ، وقد تُرجم إلى اللغات الأوروبية وظهرت أول ترجمة إنجليزية له فى سنة ١٦٢٠ ، وقد نقله إلى الإنجليزية حديثاً « رِجْ G. M. Rigg » كما نقلته الكاتبة القصصية « فرانسز ونْوور Frances Winwor » وحاولت أن تنقل لهجة بوكاتشو التسكانية المتدفقة المرنة إلى إنجليزية سلسة مما يستخدم فى الحديث .

ذلك هو كتاب ديكامرون الذى قال عنه أحد النقاد إن الأدب قد انتقل به « من منطقة ماوراء الطبيعة والقصة الرمزية واللاهوت وأخذ يحيا حياة جديدة وفق الأصول

الكلاسيكية القديمة التى تعمل على تقليد الطبيعة تقليداً مباشراً » .

فرغ بوكاتشو من كتابة ديكامرون بلجهته التسكانية ، ثم حدث أن ذهب إلى « پادوا » مبعوثا من جمهورية فلورنسه ليعيد پترارك من منفاه ، وكان بوكاتشو قد حفظ أغانى پترارك عن ظهر قلب وأعجب به منذ الصبا ؛ فلما التقى بپترارك وجده مشتغلا باحياء اللاتينية واليونانية القديمتين إحياء جعله أباً للنهضة الأدبية غير مدافع ؛ وقد تأثر به بوكاتشو فأمسك عن الكتابة باللهجة التسكانية ليكتب باللاتينية كتابة العلماء ، ومما نذكره عن بوكاتشو أنه هو الذى أضاف إلى عنوان ملحمة دانتى لفظة «الإلهية» فأصبح « الكوميديا الإلهية » كما هو اليوم .

ومات بوكاتشو فى ديسمبر من سنة ١٣٧٥ وهو فى عامه الثانى والستين بعد أن أنفق أواخر أعوامه فى فاقة مريرة وحزن أليم ، لكنه كان قد شق طريق الخلاص من العصور الوسطى ، وقد كان فى أوله طريقاً ضيقاً وعراً ؛ فهو ضيق لأن الرائد الأول كان لابد له أن يحصر انتباهه فى البقعة التى أمامه ، ولذلك جاء كتاب بوكاتشو صورة لمكان بعينه وزمان بعينه ، حتى ليصح أن يقال عنه إنه يصور إيطاليا فى القرن الرابع عشر ؛ وهو وعر لأن تفتيت الصخر عمل مجهد شاق ، لكن الطريق الجديد سلك بالنزعة الجديدة عبر سبال الألب إلى مسالك فسيحة طيعة ، هى آفاق الأدب الأوروبى الحديث .

وهاك موجزاً لإحدى قصص بوكاتشو ، وعنوانها « قصة شابَّيْن » .

* * *

طبقت شهرة سليمان فى الحكمة الخافقين ، فقصد إليه الناس من كل حدب وصوب يستلهمون حكمته ؛ فبين من حج إليه شاب يسمى « مليسو » ، وكان غنياً نبيلا ، ولما كان « مليسو » فى طريقه إلى أورشليم قادماً من بلده أنطاكية ، صادف شابا آخر يدعى « جيوسيفو » فى سبيله إلى الغاية نفسها ، فبادله الحديث على نحو ما يفعل المسافرون ، وتساءلا عن الغاية المقصودة ، فأجاب « جيوسيفو » إنه إنما يريد مشورة سليمان فى الطريقة المثلى التى ينبغى له أن يعامل بها زوجته التى لا يضارعها بين النساء ضريب فى شذوذها وعنادها ؛ فقد وعدها تارة وتوعدها طوراً ، لكنه أخفق فى وعده ووعيده ؛ ولما سئل « مليسو » عن غايته أجاب « إن حالى كحالك سوءاً ، فبرغم يسارى وسخائى على بنى وطنى

جميعاً ، لست أجد فرداً واحداً منهم يبدى لى الحب ؛ فهأنذا فى طريقى إلى سليمان أستفتيه كيف أستطيع أن أظفر من الناس بالحب » .

ومضى الشابان حتى بلغا بيت المقدس ، ومثلا بين يدى سليمان ؛ فلما ذكر « مليسو » أمره موجزاً أجابه الملك بكلمة واحدة وهى « أحِبَّ » وأخرج مليسو من الغرفة ، ثم شرح « جيوسيفو » سبب قدومه ، فلم يزد سليمان فى إجابته على قوله : « اذهب إلى جسر الأوز » ، وأخرج كذلك من حضرة الملك ، فوجد « مليسو » فى انتظاره وأنبأه جواب سليمان ، وفكر الرجلان فى الإجابتين ، فما وجدا فيهما شفاء ، فأخذتهما الريبة لعل الملك قد سخر منهما ، وأخذا فى المسير راجعين إلى بلديهما .

مضت أيام ، ثم بلغا نهراً يصل شاطئيه جسر ضيق ، وكانت طائفة من البغال والجياد تعبره واحداً إثر واحد ، فاضطر المسافران إلى الوقوف حتى يخلو لهما الطريق ، فمضت الدواب فى سبيلها إلا بغلا ثبّت قوائمه فى مواضعها لا يتحول عنها قيد أنملة ، وعندئذ أخذ صاحبه يستحثه بالعصا ، يضربه ضرباً خفيفاً ، فأخذ البغل يلوى عنقه يمنة ويسرة ولا يسير ، فاستشاط الرجل غضباً وضربه ضرباً مبرحاً آلم المسافرين فقالا له : « ماذا تصنع أيها الوغد ؟ أتريد قتل دابتك ؟ لم لا تحاول أن تأخذها بالرفق واللين ؟ ألا تدرى أن اللين أفعل أثراً من ضرب العصا ؟ » فأجاب الرجل : « أنتما أعرف منى بجواديكما وأنا أعلم منكما ببغلى ، فاتركانى أفعل به ما أشاء » ، واستأنف الضرب حتى لم يجد البغل بداً من المسير ؛ وتبعه مليسو وجيوسيفو ، فسأل جيوسيفو شاباً جالساً عند نهاية الجسر : بماذا يسمى الناس ذلك الجسر ، فقال الشاب « إننا نسميه يا سيدى جسر الأوز » ، فتذكر جيوسيفو جواب سليمان ، ونظر إلى زميله وقال : « أؤكد لك يا صاحبى أنى أدركت الآن أن حكمة سليمان صائبة لا زلل فيها ، فقد فاتنى أن أعالج عصيان زوجتى بالعصا ، وها قد علمنى هذا الرجل ماذا أصنع » .

وبلغ المسافران بعد أيام أنطاكية ، فطلب « جيوسيفو » من « مليسو » أن يقيم معه يوما أو يومين قبل أن يستأنف السفر ؛ لكن زوجة جيوسيفو قابلتهما بوجه عابس ، فأسرها زوجها « جيوسيفو » أن تعدّ العشاء الذى يأمرها به صاحبه « مليسو » ، ورغب الزائر فى ألوان معينة من الطعام ؛ فأبدت الزوجة عصيانها المعهود وأضافت إليه سخرية

بما رغب فيه الزائر من ألوان الطعام ؛ فقال لها زوجها مهدداً : « ألم يقل لك الضيف ماذا تعدين لعشائه ؟ » ، فأجابت : « مرحى مرحى ! ماذا تعني ؟ إن أردت عشاء فقم أنت وأعدّ ما تريد » فقال : « إنك لا تزالين على عنادك ، ولكني سأعلمك هذه المرة كيف تسلكين » ونظر إلى زميله مليسو وقال « سترى يا صديقي بعد قليل حكمة سليمان وصدقها » ، وأخذ يضرب زوجته بالعصا فصرخت صرخة تتوعد بها زوجها ، فلما مضى جيوسيفو في ضربها ، أخذت تستمطر عطفه وتستدر رحمته ، ووعدت أن تكون أوامره منذ ذلك اليوم مطاعة .....

وسافر مليسو بعدئذ إلى بلده ، وأنبأ رجلا حكيما ما نصحه به سليمان ، فقال الحكيم إن سليمان ما كان ليجيبك بأصدق من هذا الجواب ، ولا بأحكم من هذه النصيحة ؛ إنك تسخو على الناس بمالك لكنك لا تحبهم ، فأنت تصنع ما تصنع حباً للظهور والتماساً للنفوذ « أحبَّ الناس » ، إذن كما نصحك سليمان يبادلك الناس حباً بحب .

هكذا عوقبت المرأة العاصية فصلحت ، وأحب الرجل الناس فأحبه الناس .

مكيافلي Machiavelli :

اختار بوكاتشو لقصصه نثراً سلساً دفّاقا ليلائم فنه الطروب ؛ ثم جاء مكيافلي في القرن الذي يليه فصاغ من النثر الإيطالي لونا آخر يصلح للعرض والتحليل .

ولد مكيافلي في فلورنسه عام ١٤٦٩ وقبل أن يبلغ الثلاثين عين في منصب رفيع في حكومة الجمهورية الفلورنسية ، فاقتضاه منصبه أن تبعثه حكومته سفيراً إلى سائر المدن الإيطالية كما أرسلته إلى بلاط لويس الثاني عشر ملك فرنسا ، ولعل أهم سفارة له هي التي حدثت سنة ١٥٠٢ حين أرسل ممثلا لحكومة فلورنسه عند قيصر بورجيا[1] الذي كان عندئذ في أوج مجده ، وقد قص مكيافلي للناس قصة سفارته تلك في سلسلة من الخطابات وصف فيها قيصر بورجيا بأنه « أمير يحكم لنفسه » ثم يتحدث عنه في موضع

---

(١) قيصر بورجيا (١٤٧٦ — ١٥٠٧) ، هو ابن البابا اسكندر السادس ، عين رئيساً للأساقفة في ڤالنسيا ، ثم كاردنالا ، ولكنه آثر فيما بعد منصباً مدنياً ، وقد اشتهر بقسوته الفظيعة ، ومن جرائمه اغتيال أخيه ليفسح لنفسه الطريق .

آخر بأنه « رجل لا رحمة عنده ، يكفر بالمسيح ، وهو كالأفعى التى تقتل بنظراتها أو كالهيدرا ذات الرءوس الكثيرة ، وجدير أن ينتهى أمره إلى شر الخواتيم » ومع ذلك فقد أعجب مكيافلى بهذا الوحش الآدمى وساقه فى كتابه « الأمير » نموذجا ليحتذيه سائر الأمراء .

جاء عام ١٥١٢ وعادت أسرة مديتشى إلى حكم فلورنسه فأقيل مكيافلى من منصبه وسُجن وعُذِّب ، وأخيراً اعتزل فى ضيعة ريفية صغيرة حيث أنشأ كتابه « الأمير » ومات فى فلورنسه وله من العمر ثمان وخمسون سنة .

كان مكيافلى سياسياً ينغمس فى شئون الحياة إلى قمة رأسه ، لكنه إذا ما خلا لقلمه خرج من إهابه فنان بارع يعرف كيف يستخدم الألفاظ ؛ وإنها لظاهرة تستحق التسجيل فى النهضة الإيطالية ، أن نرى مناشط العقل يتداخل بعضها فى بعض ، فهذا شاعر وسياسى فى آن ، وذلك مُثَّالٌ يقرض الشعر ويمتشق الحسام ويضرب فى شئون الدولة بنصيب ؛ انظر مثلا إلى « لورنزو دى مديتشى » طاغية فلورنسه الذى كان يكبر مكيافلى بأعوام قلائل ، والذى اتخذ مكيافلى من حياته موضوعا لدراسته ، انظر إليه كيف كان يُصَرِّف سياسة دولته ، ثم يشجع رجال الفن ويخلع عليهم الهبات ، ثم لا يكتفى بذلك فيحمل القلم ليكتب كتابة الأديب .

كان مكيافلى — كما قدمنا — يسفرُ لأمته عند الملوك والأمراء ، وكان مشتغلا بسياسة بلده ينعم بها آنا ويشقى بها آنا ، فعرف خفايا الحكم معرفة الخبير ، لهذا همَّ أن يبحث مشكلة الدولة فى كتابه « الأمير » الذى يعد أول بحث واقعى تحليلى للمجتمع السياسى ، فتراه يبسط فى كتابه هذا ما ينبغى أن يصنعه الأمير لو أراد لحكومته النجاح والتوفيق ؛ وبلغت به الجرأة فى الرأى حداً لم تألفه الأسماع ، فهو يقرر — مثلا — فى صراحة « بأن الأمير الذى يريد حفظ كيان دولته لابد له فى كثير من الأحيان أن يخالف الذمة والمروءة والإنسانية والدين » ؛ لهذا أصبحت كلمة « مكيافلى » تعنى فى عالم السياسة المخادع الماكر الذى لا يستمع إلى صوت الضمير ؛ فقد قال مكيافلى فى الدولة رأيه عاريا ممثلا للواقع ، فلم يزعم — رياء — أن الحكومة من شأنها أن تكون شريفةً خيِّرة ، ولم يشطح به الخيال فيطلب للشعب « دولة فضلى » ، لكنه رجل عملى ، يحتم أن تقوم على أمور الناس حكومة تسلك فى حكمهم ما يتفق وطبائع البشر وظروف الزمان والمكان ؛ إن كتاب

« الأمير » أثر عقلى من أعظم ما أنتج الإنسان ، وفيه أصالة فى الرأى وإبداع فى التفكير ؛ وهو على ما فيه من تفصيلات ذهبت طلاوتها لارتباطها بمكان معين وزمان خاص ، لا يزال فى أفكاره الرئيسية كأنما أخرجته المطبعة بالأمس ؛ وإنك لتجد من كتّاب السياسة من يعجُّه ويلفظه لخروجه على مبادئ الأخلاق وقواعد الشرف ، لكن رجال السياسة العملية يعلمون فى أعماق نفوسهم أن مكيافلى صريح يصف الأمور كما تقع ، فهو فى كتابه هذا على الروح والأسلوب ، يلاحظ ويسجّل ، وهو فى نظم الحكم أميل إلى المحافظة والجمود ، لا يخضع لمثل أعلى ولا خلق أسمى ، تعجبه — إلى حد ما — حكومة الطاغية المستبد ، لهذا تراه يؤيدها ويضع لها القواعد والأصول ، ونحن فيما يلى نسوق مثالا من كتابه يُصور طريقته وأسلوبه : « إن الأمير الذى يبتغى لنفسه القوة لا يجوز له أن يعنى أو يفكر إلا فى الحرب ، وإلا فقد عرَّضَ مُلكه للضياع ؛ فإن كان جاهلا بشئون الحرب فلن يظفر باحترام جنده ولن يجد فى نفسه اطمئنانا إليهم ؛ لهذا وجب عليه أن يمارس هذا الفن عملياً وأن يدرسه دراسة نظرية ، فأما المران العملى فالصيد من وسائله ، إذ الصيد يتيح فرصة نادرة لمعرفة البلاد كما يُكسب الجسد قوة وفتوة ، وأما الدراسة النظرية فوسيلتها أن يطالع الأمير أخبار التاريخ ، وأن يتدبر أعمال العظماء ، وأن يبحث ما أدى بهم إلى النصر وما أدى إلى الهزيمة ، وأن يقتفى فى سلوكه خُطَى الأعلام المشاهير .

إن من يأخذ نفسه بمثل أعلى فى الخير يحتذيه فى كل شىء مُنْتَهٍ — ولابد — إلى الدمار ، لأنه يعيش بين أناس لا يعرفون إلى الخير سبيلا ، وإذن فلا مندوحة للأمير أن يعلم كيف ينحرف عن الخير ، ومتى يستخدم خيره ومتى ينصرف عنه ، تبعاً لضرورة الظرف القائم .

قد يكون مما ينفع الأمير أن يشتهر بين الناس بالكرم ، أما أن يكون كريماً ثم لا يعلم عنه الناس ذلك فمما يعود عليه بالضرر . . .

يجب أن يعمل الأمير على أن يقال عنه إنه رحيم لا يعرف القسوة ، لكن الأمير الجديد لا نُدْحة له عن شهرة بالقسوة ، لأن الذى يقضى على الفوضى بضربات قلائل حاسمات هو الذى يكون فى نهاية الأمر أرحم ممن سواه .

إن الناس أسرع إلى الإساءة إلى من وضع نفسه من قلوبهم موضع الحب ، منهم إلى

من جعل نفسه مخوفا مهيباً ؛ ومع ذلك فينبغى للأمير أن يُلقى فى نفوس الناس خوفا على نحو إن لم يُمَكِّنْه من اكتساب حبهم فلا يثير مقتهم ، وليذكر أن الناس أسرع إلى نسيان قتل آبائهم منهم الى نسيان إرث فقدوه . . .

يجب أن يكون الأمير أسداً ، ولكن ينبغى له أن يتعلم كيف يلعب دور الثعلب ، فمن أراد أن يخدع لن يعدم أن يجد بين الناس من يستطيب الخداع ، وعلى الجملة يجب ألا ينحرف الأمير عن طريق الخير لو استطاع ، لكنه يجب أن يعرف كيف يسلك سبل الشر إذا دفعته الضرورة إليها . . . » .

ميخائيل انجلو Michelangelo (١٤٧٥ — ١٥٦٤) :

وبينما كان مكيافلى منكباً على الدولة ونظامها ، كانت تسطع فى سماء فلورنسه عبقرية أخرى لعلها بلغت حداً لم يبلغه سواها من نوابغ النهضة فى إيطاليا ، وتلك هى عبقرية ميخائيل انجلو ؛ فهذا المصور والمثّال ينتمى كذلك إلى دولة الأدب ، فلم يقنع بأزميل النحت وفرجون التصوير ، لهذا هبَّ إلى القلم يقرض الشعر ، فكانت له مقطوعات جميلة كتبها وهو فى سن الستين .

بنفنوتو تشلينى Benvenuto Cellini (١٥٠٠ — ١٥٧١) :

ثم ظهر بعده مثّال آخر يشتغل بالأدب ، وهو بنفنوتو تشلينى الذى كتب بقلمه ترجمة حياته ، فأضاف إلى النثر الإيطالى تحفة ، و إلى الأدب العالمى أثراً خالداً ، وترجمة حياته صورة للرجل تملكته العواطف ، واستبد به الغرور ، والحق أن آثاره فى النحت التى لا تزال معروضة فى متحف فلورنسه لتشهد أن الرجل لم يسرف فى غروره بنفسه ، وهاك صفحة من ترجمته لحياة نفسه :

« إنه لواجب حتم على كل ذى موهبة وخلق قويم — مهما تكن طائفته التى نشأ فيها — أن يدون أحداث حياته ما دام قد أنتج أثراً مجيداً أو جديراً بالثناء ؛ ولقد أدرت البصر ورأيت بعض الحادثات سارًّا سعيدا ، كما رأيت منها حادثات كثيرة تشهد بالحظ المنكود ، فهالنى ما رأيت من ماضى حياتى ، حتى أثار هذا المشهد الرهيب فى نفسى عجباً كيف بلغت

من العمر عامى الثامن والخمسين ، ولا أزال بنعمة الله موفور النشاط ، فحفزنى ذلك أن أنشر على الناس قصة حياتى .

أنا بنفنوتو وأبى جيوفانى تشلينى . وأمى ماريا ليزابيتا ابنة استفانو جراناشى ، وكلا أبوىّ من أهل فلورنسه ، وكان أجدادى يقيمون بوادى أمبرا حيث كانوا يملكون فسيح الضِّياع ، وقد مهروا جميعاً فى حمل السلاح ونبغوا فى فنون الحرب ، وكان جدى أندريا تشلينى ذا موهبة لا بأس بها فى فن البناء ، وبلغ أبى جيوفانى حداً عظيما فى فن التصوير .

وجاء مولدى يوم « عيد القديسين » من عام ١٥٠٠ ، وكان الوالدان يرقبان بنتاً ، لكن أبى لم يكد يرى بعينيه الغلام غير المرتقب مُشبِّكا يديه حتى رفع بصره إلى السماء قائلا : « أحمدك اللهم من أعماق قلبى على ما منحتنى ، وإنه لعزيز علىّ ، ومقدمه حبيب إلى نفسى » فسأله الحاضرون فى مرح ماذا اعتزم أن يسمى الوليد ، فلم يجب بغير هذه الكلمات « إن مقدمه لخير » ، ثم صمم أن يكون هذا اللفظ « مقدم الخير » — وهذا معنى بنفنوتو — اسماً لى ، وهكذا سُمِّيتُ عند التعميد ، ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرى ، اشتغلت مع صائغ يدعى ماركونى ، وكان ميلى إلى هذه الصناعة من القوة بحيث لم تمض شهور قلائل حتى نافست فيها مهرة صُنَّاعها ؛ كذلك مارست فن صياغة الأحجار الكريمة فى « سيينا » و « بولونيا » و « لوكا » و « بيزا » ، فأخرجت فى كل مكان من هذه مصنوعات من الدقة والجمال بحيث كانت آية فى ذلك الفن ، فأوحى إلىّ ذلك أن أكون شديد الطموح ، وقد احتفرت لوحة من فضة نقشت فيها مجموعة من أوراق الشجر وطائفة من أجسام الشباب ، وغير هذه من المناظر الفخمة ، فلما وقعت على هذه اللوحة أبصار جماعة الصائغين فى فلورنسه ، ذاع بينهم أنى أمهر من يشتغل فى ذلك الفن من الشباب . . الخ »

أريوستو Ariosto :

كان كتّاب النهضة وفنّانوها يجمعون بين الاتِّباع والابتداع (أو النزعة الرومانتيكية والنزعة الكلاسيكية) فكانوا من جهة يقلدون القدماء ويعنون بالفكرة وزخرفة اللفظ ، ومن جهة أخرى كانت آثارهم تنبض بالعاطفة والخيال ، ولست تجد فيهم سمات واضحة تنحاز بهم إلى جانب دون آخر ، ومن أجمل ما تمثلت فيه النزعتان ملحمة أنشدها أريوستو

وسرعان ما ذاعت بين الناس وأصبحت أحبّ ما أنتجه الخيال فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر إلى قلوب القارئين حتى أطلق على كاتبها لقب « الإلهىّ » ؛ وقد وصف أحد النقاد المحدثين هذه الملحمة بأنها « أنقى وأكمل مثال مما بقى لنا من شعر النهضة » ، وهى تصور عصرها فى إحدى نواحيه ، إذ تتجه اتجاهاً إنسانياً ولا تعنى بشئون الدين أو الحياة الآخرة ، مما كان يشغل أدباء القرون الوسطى ، فمن أخص خصائص النهضة الأوروبية أنها حولت الأنظار من الآخرة إلى الدنيا ، ومن السماء إلى الأرض .

ولد « لودو ڤيكو أريوستو » عام ١٤٧٤ ، ولما بلغ عامه التاسع عشر ، بدأ يخدم أحد الكرادلة ، وأخذ ينشئ ملحمته الكبرى « أورلاندو فيوريوزو أى أورلاندو الثائر Orlando Furioso وأكمل إنشاءها فى عشر سنوات ، ولم تكد تُنشر حتى طار صيته فى أرجاء إيطاليا ، ووضعه البابا ليو العاشر تحت رعايته ، وبعد أن أتم الشاعر قصيدته ، أخذ يكتب الملاهى مقتفياً فيها أثر كتّابها من اللاتين ، وعلى رأسهم « پلوتَسْ » و « تِرِنْس » ، ولما دنا أريوستو من ختام حياته عُيِّن حاكما لإحدى المقاطعات فى جبال الأپنين ، ولم يدفعه إلى قبول هذا المنصب الذى لا يتفق ونزعة الشعر والخيال إلا فقر نال منه كما ينال من معظم الشعراء ؛ وقد حدث أن اجتاحت عصابات اللصوص إقليمه ذاك ، بل وقع فى أسرهم الحاكم الشاعر ، ومن لطيف ما يروى فى هذا الصدد أن زعيم اللصوص لما علم أن أسيره هو صاحب قصيدة « أورلاندو » بادر إليه يطلب المعذرة ، وأطلق سراحه تقديراً منه لشعره الجميل .

وأورلاندو الثائر قصيدة خيالية تصف عراكا حاداً عنيفاً ينشب بين طائفة من الفرسان المسيحيين ، وأخرى من الفرسان الوثنيين ، وفيها بالطبع مغامرات تثير العاطفة وحبٌّ فيه الهمة والمروءة الجديرتان بالفرسان ، وموضوع القصيدة شديد الشبه بقصص « آرثر » التى مر ذكرها فى أدب العصور الوسطى ، بل إن « أورلاندو » الإيطالى هو نفسه « رولان » الذى دارت حوله أساطير الأدب الفرنسى الوسيط ، وتقع القصيدة فى سلسلة من مقطوعات شعرية ، تبدأ كل مقطوعة منها بمقدمة تكون بمثابة حلقة تربط الحادثة السابقة بالحادثة اللاحقة ، ثم تتيح للشاعر فى الوقت نفسه فرصة التفكير العميق فى مبادئ الأخلاق وخصائص الوطنية الصحيحة وما إلى ذلك ، وقد ترجمت قصيدة « أورلاندو » إلى الإنجليزية فى عصر اليصابات ، وأثرت فى الأدب الإنجليزى إذ ذاك أثراً قوياً ، ولعل أجمل أجزائها

تلك السطور التي يصف فيها الشاعر يأس «أورلاندو» وما استقبله من جنون حين يعلم أن حبيبته «أنجليكا» قد خانت عهده وتزوجت من رجل آخر :

أنا لست «أنا» ، لم أعُدْ الرجلَ الذى كُنْتُه
لم أعُدْ أورلاندو ، فأورلاندو قد قُبِرَ ومات
فحبيبته التى خانت عهده — أواه ! أيتها الصبية الحمقاء !
قد قتلتْ أورلاندو وطاحت برأسه ؛
أنا — مِنْ أورلاندو — شبحه يروح ويغدو
هائماً إلى الأبد فى هذا الوادى الأليم
ليكون عِبْرَةً هائلة عادلة
لسائر الحمق الذين يركنون إلى عهود الحب

وفى موضع آخر من القصيدة يصف «أريوستو» موتَ ملك شاب شهم وصفاً رائعاً فيقول :

انظر إلى هذه الزهرة الأرجوانية تذبل وتذوى
انظر إلى حامل المنجل يجزُّها ثم يُلقيها
ها هو ذا رأس الخشخاشة على أرض الحديقة يهوى
طاحت به قطرات الغيث فألقتْ به حطيما ؛
هكذا سقط «دارْدِنل» فوق الأرض على وجهه الشاحب ،
وهكذا خلَّف الحياة ومضى ،
مضى من الحياة فمضتْ بمضيِّه
كلُّ حماسة وشجاعة من قلوب أتباعه

تورکوانو تاسو Torquato Tasso :

على أن أنبغ الشعراء الإيطاليين فى القرن السادس عشر هو تورْكُواتو تاسُو ، وآيته قصيدة طويلة عنوانها « انقاذ بيت المقدس » وهى تقص أنباء الحروب الصليبية وتروى كيف استرد « جودفرى بُويُون » قبر المسيح ؛ وتكاد هـذه القصيدة تكون ملحمة من حيث

بناؤها وأجزاؤها ، ويظهر أنه قد كانت لها فى عين ناظمها وفى رأى قرائها قدسية دينية ترجع إلى قدسية موضوعها ، لكن القارئ الحديث لايلمس فيها مثل هذه القدسية ، ولا يجد فيها أكثر مما يجد فى قصة « الطلسم » للسير ولتر سكت[1] التى يروى فيها قصة الحروب الصليبية أيضاً ؛ ولكنا فى الحكم على قصيدة « تاسو » لايسعنا إلا أن نذعن لرأى « كاردوتشى » Carducci الشاعر الناقد الإيطالى الذى عاش فى القرن التاسع عشر ، واعتبر « تاسو » خليفة دانتى ؛ وقد أنشأ تاسو هذه القصيدة الكبرى وغيرها من الآثار الأدبية وهو لا يزال فى شرخ شبابه ، ثم قبل أن تكتمل رجولته وتنضج ، أقعدته العلة وأصابه مَسٌّ من جنون ، وهذا مثل من قصيدة « انقاذ بيت المقدس » قال فى أوائلها :

إلى بهذا النشيد أُغنّى جموع التقوى وقائدها الأعلى
ذلك البطل الذى ردّ عن قبر يسوع المبارك أيدى العِدى ،
فكم صال فى حومة الوغى ، وفى مجلس الشورى كم أبْدى ،
وكم عانى فى الذى أدّاه من صنع جليل وكم أسْدَى ؛
وقفتْ جهنم فى وجهه عبثا ما قاومت وسُدى ،
وعبثا تحالفتْ أفريقيةُ وآسيا وجرّدتا من الغمد مُهَنّدا ،
وهل يُغْلَبُ من مَدّتْ له السماء يدا ؟
ومن ضَلّ من أصحابه عاد اليوم واهتدى

ثم يقول الشاعر إن الله قد أرسل من ملائكته جبريل إلى جودفرى يستحثه على المسير بغير إبطاء إلى بيت المقدس ، فيُلقى جودفرى خطابا ثم يعقب عليه بطرس الراهب بخطاب آخر ، وبعدئذ يقع الاختيار على جودفرى ليكون قائداً للحملة الصليبية ، فينهض من فوره ويستعرض جنده ، ويبدأ المسير ، فيهتز لهذا النبأ أهل أورشليم ، ويفزع له ملكها علاء الدين ، ويأخذ العدة للدفاع والمقاومة .

وقد أثار « اسمينو » غضب علاء الدين ، حين أراد أن يجعل من تمثال للعذراء حرزاً يصون أورشليم ، وكان هذا التمثال محفوظا فى إحدى الكنائس المسيحية ، فانتزعه منها علاء الدين ووضعه فى مسجده : لكن حدث أثناء الليل أن اختفى التمثال من موضعه فى

(١) نقل قصة الطلسم إلى العربية الأستاذ محمود محمود .

المسجد ، وعبثاً حاول علاء الدين أن يسلم من اختطافه وأخفاه فى جنح الليل ، فأخذته سورة الغضب ، وصمم أن يريق دماء المسيحيين فى مذبحة شاملة ، وهنا تنشأ قصة « سوفرونيا »[1] و « أولندو »[2] فتحول دون وقوع الكارثة .

فهنالك فى بيت المقدس كانت تقيم فتاة كريمة النفس فاتنة الجمال ، لكنها لم تأبه لجمالها على روعته ، ولا اتخذت منه حلية تزدان بها ، وإنما انتبذت من المدينة مكاناً متواضعاً بعيداً عن نظرات المحبين ، وظلت فى دارها بمنجوة من كلمات الحب المسولة ، ولكن هيهات للجمال أن يختفى ، ذلك الجمال الذى لا تكاد تشخص إليه ببصرك مرة حتى يثير فى فؤادك عشقاً وهياما ، فقد وقعت عينا « أولندو » على « سوفرونيا » فكان لجمالها فى قلبه ما يكون لوقع السهام ؛ وكان الفتى والفتاة من بلد واحد ونشآ على عقيدة واحدة ، لكنه كان من الحياء بقدر ما كانت الفتاة من الجمال ؛ فتمنى العاشق أن يظفر من معشوقته بشىء كثير ، ولكنه لم يتوقع أن يحقق من أمنيته إلا قليلا ، ثم انعقد لسانه حين لقيها فلم يطلب منها قليلا ولا كثيراً ، وظل يحترق بلذة حبه الصامت .

صممت « سوفرونيا » أن تنقذ بنى عقيدتها المسيحيين فزعمت للسلطان أنها سارقة التمثال وأنها أحرقته فأزالته من الوجود ، وسمع منها السلطان ما زعمتْ فثارت ثائرته وأمر أن يُلْقى بالآثمة فى النار جزاء ما فعلت ؛ لكن « أولندو » أسرع إليه ينفى عن « سوفرونيا » جريمتها ويعترف بأنه السارق ؛ فأمر السلطان بإحراقه معها ؛ لكن الفتى والفتاة ينجوان من الموت بفضل امرأة مسلمة جديرة أن توضع فى زمرة الأبطال ، وهى « كلورندا » ، فقد أقبلت هذه البطلة مسرعة على ظهر جوادها إلى حيث أُعدت موارد الرَّدى للحبيبين ، وأمرت ألا تقع تلك الفعلة الشنعاء ؛ وأذعن لها السلطان كارها ، على شرط أن يُنْفى من بيت المقدس ذلك الفتى ومعه فتاته وعدد من طائفة المسيحيين . . .

جاء السفراء من مصر ليعرضوا على جودفرى أن يترك المسلمون للصليبيين ما فتحوه من أصقاع ، على شريطة ألا يهاجم الصليبيون بيت المقدس ، فأعرض جودفرى عن رسالتهم وأعلن مواصلة القتال :

واستيقظتْ نسائمُ الصبح بالنذير تَهُبُّ وتَخْفُقُ

---

(١) Sophronia .

(٢) Olendo .

معلنةً أنّ الفجرَ الجميل أخذَ يبدو و يشرق
وازّيّنَ الفجر : على شَعْره الذهبيّ إكليلٌ يتألق ،
إكليلٌ من ورود الفردوس جيء به نديًّا يعبق ؛
وقبل أن يُنفَخَ للجند فى الصور ماجوا ودمدموا
واهتزت حناجرهم ذات الصوت القوى وهمهموا
وكانوا فى السلاح ألوفا ، وصاح البوق بأصدائه يترنّم
فدوّى فى المسامع حَيًّا له فى النفس إيقاعٌ وأنغُم ؛
فكأنما اتخذتْ جَناحا قلوبٌ للوغى تواقةٌ وأذرع ،
وانطلقوا طَيْرًا فى غير وَهْيٍ وأسرعوا ثم أسرعوا ،
حتى أخذت الشمس فى كبد السماء تعلو وتسطع
و بلغتْ أوج السماء واحترقَ بها الفضاء البلقع ،
انظر ! ها قد تبدّتْ أورشليم الجميلة للشاخصين
انظر ! تشير إليها الأصابع فى صيحة الصائحين ،
وألوف الأصوات وألوفها ارتفعت من الجنود الهاتفين :
« إنها أورشليم ! سلام الله ، سلام الله يا أورشليم ! »

أخذت جيوش المسيحيين تدنو من بيت المقدس ، فهجمت البطلة المسلمة كلورندا على رأس جماعة من المقاتلين ولاقت طائفة من الصليبيين على رأسهم « جارْدُو » وفتكتْ به ، فأمر جودفرى أحد قواده « تانكرد Tancred » أن يتقدم لنصرة تلك الطائفة المسيحية المهزومة ، لكن « أرمينيا » ابنة أحد الملوك صعدت برجا عالياً وأخذت تشير إلى علاء الدين فتبين له مواضع القواد فى الجيش المسيحى ؛ وما هى إلا أن منيت قوة من الأعداء (يقصد المسلمين) بالهزيمة ، وجمع جود فرى أشتات جيشه واقترب من بيت المقدس وعسكر عند بابها الجنوبى ؛ فلما رأى الشيطان — واسمه فى القصيدة بلوتو[1] — ما أحرزه المسيحيون من نصر ثار غيظه وأسرع فجمع مجلساً فى الجحيم ليرسم الخطة لمقاومة المسيحيين :

فبينما تُعد الفرنجةُ آلات القتال

(١) بلوتو فى الأساطير اليونانية اسم لرب الجحيم ومقره تحت الأرض .

لتكون بها على أهبة لهذا النضال
أدار عدوّ الإنسانية اللدود عينيه الفاترتين
نحو المسيحيين من مكانه فى ظلمة الجحيم الدامسة ؛
فلما رآه على أعمال التقوى مكبين
عضّ كلتا شفتيه واحترق بنار الغضب ،
ثم أخرج تلك الغضبة — كأنما هو ثور جريح —
فى زئير مُدَوٍّ رَنَّتْ به جنبات الجحيم ،
ولم يَعُدْ يعنيه إلا أن يَصُبَّ دمارا
على المسيحيين ما بعده دمار ؛
وأمر جنده أن يجتمعوا حول عرشه
فى مجلس ، ياله من مجلس مخيف !

و بعد أن ألقى فيهم بلوتو خطابا ، أرسل رسله إلى عضروت الساحر فأغروه أن يرسل ابنة أخيه « أرميدا » وهى ساحرة كذلك لتضلل قادة المسيحيين ؛ فلما وصلت أرميدا إلى معسكر المسيحيين قابلت « يوستيس Eustace » فقدمها إلى جودفرد ، وعندئذ قصت للقائد عن نفسها قصة زائفة وطلبت أن يعينها جودفرد فى محنتها ، فرفض بادئ الأمر ، ثم ألح عليه أخوه يوستيس أن يستجيب لدعاء الفتاة ففعل ، وأرسل معها عشرة من فرسانه ؛ وكان يوستيس قد شغفه حب أرميدا ، وأخذته الغيرة عليها من فارس مسيحى آخر اسمه « رنالدو » أن يزاحمه فى حبه ، فأغراه بقتال منافس له حتى اشتبك رنالدو فى ذلك القتال ، وفتك بمنافسه ، وهمّ جودفرد أن يقتصّ منه ففر رنالدو وخلا الجو ليوستيس ... وهنا يدب فى معسكر المسيحيين شىء من الفوضى بفعل الساحرة ، من ذلك أنها أخذت تضلل « تانكرد » أحد أبطال الصليبيين حتى اعتقلته فى قلعة لها بعيدة ؛ لكن الله أرسل إلى معسكر المؤمنين كبير ملائكته ميكائيل ليشتت رُسُلَ الشياطين :

وصاح كبير الملائكة وملك الملوك
وقد اتشح بسلاح من الماس البهىّ الساطع اللامع
وقال : « ألا ترون شياطين الجحيم المناكيد
كيف قذفوا بسلاحهم فى وجه أتباعى من المؤمنين ؟

* * *

وانحنى الملَكُ المجنح بعد أن فاه بهذه الكلمات
على قدميه وقد جللتهما القداسة والهيبة ،
ثم نشر فى الريح جناحين من ذهب
وشق بهما الهواء مسرعا يسبق سبحات الخواطر .

طرد ميكائيل الشياطين من حومة القتال ، فاستأنف المحاربون نضالهم ، وقد آلت بالمسيحيين الملمات ، فالشمس محرقة ، والظمأ شديد ، فدعا جودفرد أن يُنزل الله لهم غيثاً يطفئ ظمأهم ، فما هى إلا أن تمطر السماء وينتعش الجنود ؛ ومن معجزاته أيضاً أن هَبَطَتْ على صدره حمامة زاجلة ، كان يطاردها بازىّ مفترس ، فوجد تحت جناحها رسالة بعث بها قائد الجيش المصرى إلى أمير أورشليم يعده أن ينجده بعد أيام قلائل ، وعندئذ أمر جودفرد بالهجوم فوراً ، واستطاع المسيحيون بذلك أن يدخلوا أورشليم ظافرين :

هذا ميكائيلُ كبير الملائكة لا تدركه العيون ؟
لكنه بدا أمام جودفرد متشحاً بشكة متألقة !
خَفَتَ بضوئها ضوء الشمس الساطعة !
وصاح به : « قد دنت الساعة أيها الأمير المؤمن !
فارفع عن أورشليم نيرها الثقيل !
لا تخفض البصر ، كلا لا تخفض بصرك المبهور !
وانظر بأى جنود تؤيدك السماء ! »

* * *

وبعد « تاسو » غربت فى إيطاليا شمس نهضتها ، ولكنه لم يكن غروباً يستتبع موتها ، إذ لبثت النهضة الإيطالية حية فى نتاجها وثمارها ، تراها ماثلة فى آثارها من مرمر التماثيل وأصباغ الصور وكلمات الأدب ، ومن إيطاليا شاعت النهضة فى سائر الأقطار ، وعلى الرغم من أن الشعر قد أفل نجمه فى إيطاليا ، فقد بقى فيها الفكر حياً ساطعاً ، بل لعله ازداد قوة وحياة حين خيمت على إيطاليا ظلمة فى عالم السياسة ؛ وإنما ظهر ذلك الفكر القوى فى النثر الفلسفى والعلمى الذى أنشأه « برونو » و « جاليليو » ، فهذان الفيلسوفان ينتميان إلى الفلسفة بالفكر العميق وإلى الأدب بالأسلوب الجميل .